على عرش الشهرة

ليس جون ديوى مجهولا من جمهور المثقفين فى مصر والشرق العربى ، إذ نُقلت آراؤه فى التربية منذ زمن طويل ، واتخذها المعلمون الذين درسوا فى معاهد التربية نبراساً لهم . وترجمت له كتبٌ كثيرة إلى العربية ، منها « الديمقراطية والتربية » ، و « الخبرة والتربية » ، و « الحرية والثقافة » ، و « تجديد فى الفلسفة » و « آراء توماس جيفرسون الحية » . وعلى الرغم من أن أحداً غيره من الفلاسفة لم يظفر بترجمة هذا العدد من مؤلفاته إلى العربية — فيما عدا أفلاطون وأرسطو من القدماء وقلة من المحدثين — فلم يُكتب عنه كتابٌ مستقل يحلل فلسفته ، ويشرحها ، ويقدمها إلى الجمهور العربى . ولعل ذلك يرجع إلى وفرة تآليفه ، ودقة مذهبه ، ووعورة أسلوبه .

وقد اتصلتُ بفلسفة ديوى صلة مباشرة حية عن طريق أحد تلاميذه ومريديه هو الأستاذ « جورج ديكهويزن Dykhuizen » ، مواطنُ ديوى فى فرمونت والذى كان منتدباً للتدريس بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ . وقد ألقى فى مصر محاضرة عامة عنوانها « جون ديوى : فيلسوف ومرب أمريكى » ، فانبعثت روح الأستاذ فى تلميذه ، وسرت عن طريق المحاضر إلى جمهور السامعين ، وظفرتُ فى تلك الليلة بشعاع من فلسفة ديوى الحية عن طريق السماع . وأنت تعلم أن الفلسفة التى تُقرأ فى الكتب إنما هى فكر يخلو من الحياة ، ولفظ متجرد من الروح .

فلما سافرت إلى أمريكا أستاذاً زائراً عام ١٩٥٦ اتصلت بأساتذة الفلسفة الذين عرف بعضهم ديوى شخصياً وتأثر به وكتب عنه ، أو عرفه عن طريق بعض تلاميذه ؛ وهم على الجملة ، لأنهم أهل بلد واحد ، أعرف بفيلسوفهم

وأقدر على فهم دقائق مذهبه وأسرار تفكيره ، وأدق من غيرهم فى التمييز بين المعانى المتشابكة المتقاربة . مثال ذلك أن الأستاذ « لويس هان » عميد كلية الآداب بجامعة واشنجطن يؤول مذهبه على أنه « السياقية Contextualism » على حين يفهمه الأستاذ « هستون سميث » فى تلك الكلية أيضاً على أنه « مذهب العمليات العقلية Operationalism » . ويرى البعض أنه « الأداتية » أو « البرجماتية » أو « التجريبية » وهكذا . ويذهب بعض الأمريكيين إلى أن ديوى فيلسوف تربية ، وبخاصة أساتذة التربية وهم كثيرون ، ويذهب البعض الآخر أنه فيلسوف منهج ، أو منطق ، أو اجتماع ، إلى غير ذلك .

ويرى كثير من أساتذة الفلسفة فى أمريكا أن الكتابة عن فلسفته مضللة ، وأن الأسلم لتصوير مذهبه اختيار نصوص من كتبه تعرض على القارئ ، مع التقديم لها بمقدمة موجزة تبين الخطوط العامة لفكره . وهذا ما فعله كثيرون منهم بالفعل . والعلة فى ذلك خشية التأويل . لأن كل فلسفة فإنما هى شخصية ، وهذا فصل ما بينها وبين العلم . وفلسفة ديوى شخصيةٌ ، والفلسفة التى تكتب عن ديوى شخصيةٌ كذلك . فنحن حين نكتب عنه ونصور مذهبه ، إنما نصور ما نراه نحن أن هذه هى فلسفته . ولكننا سنحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أن نكون موضوعيين ، وأن نعرض ما نعتقد أنه تصوير أمين صادق لفلسفة ديوى[١] .

وقد سلكنا فى الكتابة عنه مسلكاً جديداً . كان يمكن أن نتتبع تآليفه على مدى حياته ، ونلخص رأيه فى كل كتاب ، فيتضح من ذلك تطوره التاريخى . وهذا كما ترى مسلك معروف مأمون . وكان يمكن أن نعتمد على المؤثرات الفكرية التى صاغت تفكيره فى شبابه ، وهى فى جملتها ثلاثة البراجماتية

---

(١) ليس من المناسب فى مجال الذكرى المئوية للرجل أن نوجه إليه سهام النقد ، وبخاصة لأن الكتاب الذى نقدمه ليس من الضخامة بحيث يتسع للعرض والنقد معاً . ومن شاء أن يطلع على نقد لمذهبه فليقرأ كتاب كروسر « علمية جون ديوى » .

الأمريكية ، والتجريبية الإنجليزية وبخاصة مذهب التطور ، والمثالية الألمانية . ثم نرى كيف راجع ديوى نفسه ، وتخلص من بعض هذه المؤثرات ، ثم طلع بمذهب جديد . وكان يمكن أن نتخذ من بعض أفكاره الرئيسية محوراً تدور عليه فلسفته ، كالتربية ، أو المنهج العلمى فى تطبيقه على الحياة الاجتماعية ، أو الديمقراطية ، أو غير ذلك . ولكننا آثرنا أن نجعل « الرجل » محور فلسفته ، نتناوله أولا فى حياته وسيرته ، ثم فى جوانبه المتعددة الألوان ، فنصوره مربياً ، وفيلسوفاً ، وثائراً على الفلسفة التقليدية ، وأخلاقيـًا ، وعالماً اجتماعيـًا . . .

ويعد جون ديوى من أبرز فلاسفة العصر الحاضر . لا فى أمريكا فقط ، بل فى جميع أنحاء العالم . فهو ولا ريب فيلسوف أمريكا المعبر عن اتجاهاتها العقلية ، وهو إلى جانب ذلك وبحكم آرائه فيلسوف عالمى ، أو كما يسميه الأستاذ إروين إدمان « أحد صناع التراث الأمريكى » ، ثم يضيف إلى ذلك : « يعترف بديوى اليوم أحد صناع الفكر المعاصر أو أحد الذين جددوا صياغته ، ليس بين أوساط الفلاسفة المحترفين فقط بل فى القانون والتعليم والفن »[١] . ويقول الأستاذ ديكهويزن : « تعتمد شهرة جون ديوى فى أساسها على مساهماته البارزة فى عالم الأفكار ، فهو يعد أحد كبار الفلاسفة الحقيقيين فى القرن الحاضر ، وهو أبرز المفكرين التربويين فى أمريكا . وقد امتد أثر فلسفته إلى ميادين شتى من البحث ، كعلم النفس ، والعلوم السياسية ، والاقتصاد السياسى ، وعلم الاجتماع ، والدين ، والتشريع والتربية ، بحيث أحست جميعاً بقوة فكره وأصالته . . . »[٢] . وكتب الأستاذ جون تشايلدز ، أحد تلاميذ جون ديوى ، يحتفل بذكراه عقب وفاته قال : « كتب الأستاذ موريس كوهين مقالاً عن الفلسفة الأمريكية صرح فيها بأن أمريكا إذا كان لها أن نصطنع طريقة بعض الدول الأوربية فتنشئ كرسيـًا وطنيـًا للفلسفة ، فلن تجد إلا شخصاً واحداً

---

(١) Irwin Edman : John Dewey, p. 21.

(٢) G. Dykhuizen : in Vermont Life magazine — 1949.

يشغله هو جون ديوى . ولا ريب أن تقدير الأستاذ كوهين لصدارة ديوى فى الفلسفة الأمريكية مما يوافقه عليه معظم المشتغلين بهذا الفن .

ولم يكن ديوى معترفاً به كأبرز مفكرينا فقط ، بل كان الممثل الذى تجسدت فيه معظم الأمور التى نعدها أمريكية ، ففيه مزيج من البرجماتية التى تؤكد ميزان النتائج العملية ، والمنهج العلمى ، والاختراعات التكنولوجية ، والديمقراطية باعتبارها شكلاً للحكومة وطريقة للحياة على حد سواء ، والروح الأمريكية الأولى بما كانت تمتاز به من إيمان بأن الرجل العادى يستطيع أن يبنى بالتعاون حضارة أكثر إنسانية . . . »[١]

فإن قلت : ولكن رأى هؤلاء الجماعة الذين ذكرتهم فيه من التحيز لمفكر من أبناء وطنهم ما لا يحتاج إلى دليل ، قلنا : لقد شهد له المفكرون من الأجانب عن أمريكا ، مع العلم أن تقدير الأحياء وهم على قيد الحياة نادر الوقوع . فهذا « بارودى » يكتب من فرنسا يقول : « إنه على الرغم من أن قلة قليلة من آثار ديوى — فيما عدا كتبه فى التربية — قد نُقلت إلى الفرنسية ، فإن فلسفته معروفة معرفة جيدة فى فرنسا وهى تلقى أعظم التقدير »[٢] . ولعلك تقول ، ولكن الفرنسيين قوم مهذبون يميلون إلى الثناء ؛ فإليك رأى مفكر لا يرحم فى نقده ، ولا يعترف إلا بنفسه ، نعنى برتراند رسل . فقد افتتح الفصل الثلاثين الذى كتبه عن جون ديوى فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » . قائلا : « إن ديوى الذى ولد عام ١٨٥٩ يُعترف به على وجه عام أنه رأس الفلاسفة الأحياء فى أمريكا . وإنى لأوافقهم على هذا التقدير تمام الموافقة ، فقد كان له تأثير عميق لا بين الفلاسفة فقط بل على طلاب التربية والجمال والنظريات السياسية »[٣] ويقول فى مقالة أخرى : « ولهذا الفيلسوف وجهة نظر — حيث تكون هذه النظرة

---

(١) Journal of Educational Theory — Vol. IV, Number 3, July 1954.

(٢) in Schilpp : The Phil. of J. Dewey, p. 229.

(٣) Bertrand Russell : Hist. of Western Philosophy, p. 819.

متميزة — تتفق مع عصر التصنيع والعمل الجماعى . ومن الطبيعى أن يكون أثره الأكبر فى الأمريكيين ، كما يقدره كذلك قوم يأخذون بعناصر التقدم مثل أمة الصين والمكسيك ممن يحاولون الانتقال السريع من حياة العصر الوسيط إلى التجديد الحديث . وتشبه شهرته ،لا مذهبه ، تلك الشهرة التى تمتع بها بنتام فى زمانه » (١) .

فإذا صرفنا النظر عن الغمزات اللاذعة التى اشتهر بها برتراند رسل ، بقى أنه اعترف بالفضل والشهرة والزعامة الفلسفية لا فى أمريكا فحسب بل فى الدول الأخرى التى تريد الأخذ بالحضارة الحديثة . وهذا شىء طبيعى من فيلسوف إنجليزى يعتز بقوميته ، ويتمسك بتقاليد الإنجليز ، وله إلى ذلك فلسفته الخاصة ، ووجهة نظر فى المنطق الرمزى لم يوافقه عليها ديوى ، كما سنرى بعد قليل عند الكلام عن ديوى المنطقى .

ومع ذلك فلم يسلم فيلسوف من النقد . وقديماً نقد أرسطو أستاذه أفلاطون فى سبيل الحق . وسهام النقد التى توجه إلى الفيلسوف من كل مكان ودليل على شهرته وآية على عظمته ، لا على ضعفه وضآلة شأنه . وفى الكتاب الذى نقلنا عنه رأى بارودى ورسل مقالات أخرى كثيرة بأقلام أعلام الفكر فى أمريكا وأوربا من مثل سانتايانا وهوايتهيد وغيرهما ، بعضها يشرح فلسفة ديوى ويحللها ويقدمها للجمهور ، وبعضها ينتقد هذه الفلسفة انتقاداً مرًّا . وقد انبرى لهم ديوى فى آخر الكتاب فشكر المادحين والقادحين على حد سواء ، ورد على نقد الناقدين فى فصل طويل بعنوان « الخبرة والمعرفة والقيمة » لخص فيها فلسفته ، ووضّح مذهبه ، ودافع فيها عن نفسه ، فالتقى الفكر بالفكر فى أجمل ندوة عقلية وأروعها ، كما كانت سنّة سقراط وأفلاطون فى الحوار والجدل . وهذه لعمرى هى السيرة الفلسفية كما ينبغى أن تكون ، السيرة البعيدة عن التعسف الدجماطيقى

(١) in Schilpp : The Phil. of J. Dewey, p. 137. "Dewey's New Logic"

وعن سوقية التفكير العامى .

وبعد ، فإنى أود أن أنبه على أمرين راعيتهما فى هذا الكتاب ، الأول العناية بعرض البرجماتية [١] عرضاً دقيقاً واسعاً بعض الشىء ليطلع قراء العربية على هذا المذهب المعبر عن الفلسفة الأمريكية فى جملتها ، والثانى التزام عبارات ديوى نفسه فى أكثر المناسبات لأنه هو نفسه كان يشكو من عدم أمانة الناقلين لمذهبه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى أمانة العرض ودقة التصوير .

* * *

رأينا فى استهلال هذا الفصل أن ما ترجم إلى العربية من كتبه خمسة هى (١) الديمقراطية والتربية (٢) الخبرة والتربية (٣) الحرية والثقافة (٤) تجديد فى الفلسفة (٥) آراء توماس جيفرسون الحية .

واليوم ونحن فى سنة ١٩٦٨ نجد أنه قد ترجمت له تسعة كتب أخرى هى (١) البحث عن اليقين (٢) المنطق أو نظرية البحث (٣) الفن خبرة (٤) الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى (٥) الفردية قديماً وحديثاً (٦) المدرسة والمجتمع (٧) التربية فى العصر الحديث (٨) مدارس المستقبل (٩) المبادئ الأخلاقية فى التربية .

---

(١) أقدم ما كتب بالعربية فى البرجماتية كتاب « الذرائع » ليعقوب فام ونشرته لجنة التأليف منذ ربع قرن ، ولكن عنوانه نفسه يدل على تحريف المذهب ، وأحدث ما كتب فى شىء من التطويل كتاب الدكتور زكى نجيب محمود « حياة الفكر فى العالم الجديد » والفصل الذى كتبه الأستاذ إسماعيل القبانى فى كتاب « التربية عن طريق النشاط » عن فلسفة جون ديوى .